أنا والإذاعة...

للأستاذ علي الطنطاوي

[أذيعت من محطة إذاعة دمشق يوم الاربعاء ١٥ — ٨ — ١٩٤٦].

أيها السادة :

— إني أشكو إليكم القائمين على هذه المحطة ، فقد ظلموني وظلموكم معي . جاؤوا بي لأحدثكم ، فحسبت أني سأدخل ناديا فيه ناس أراهم ، فأخاطبهم على قدر عقولهم ، فإن كانوا علماء كلمتهم كلام العلماء ، وإن كانوا من العامة خاطبتهم خطاب العامة ، فإذا هم يصعدون بي درجاً بعد درج حتى إذا كدت رجلاي من الصعود ، وهممتُ بالرجوع ، قالوا : قد وصلنا ، فنظرت فإذا نحن في أعلى طبقة من (عمارة البرق والبريد) ، فتلفتُّ أنظر أين النادي الذي سأخطب فيه ؟ فما عهدت ناديا يبنى على رأس مئذنة ! وأين الناس ؟

— وإذا هم يدخلونني من دهليز إلى دهليز ، حتى انتهيت إلى زاوية مظلمة ، فأشاروا إلى باب ، وقالوا : (هُسْ) ، إياك أن تتكلم ، أو تعطس ، أو تسعل ، أو تخبط برجلك ، أو تدق بيدك ، أو تُخَشْخِشَ[1] بأوراقك ...!

قلت : فكيف إذن أتحدث ؟ أتريدون أن يكون حديثي إيماء وإشارة من غير كلام على لغة الخرسان ؟

قالوا : لا ، ولكن إذا جاء دورك تكلمت

وفتح الباب ، ودخلنا إلى غرفة صغيرة كأنها الصندوق المقفل ، لا شباك ولا باب ولا نافذة ولا كوّة ولا شقّ لدخول الهواء ، ورأيت فيها مكتباً ما عليه إلا علبة قائمة على عمود من الحديد ووراءها مرآة ، وقد وقف أمامها شاب يصوّت أصواتاً بعضها يخرج من حلقه وبعضها من صدره وبعضها من بطنه ، ويتخلّع ويتلوّى مع النغمات ، وقد يأتي بكلمات يلقيها إلقاء بلا نغم ، ووراءه رفاق له ينبرون بأعوادهم نبرات ، ويؤدون

(١) من الخشخشة

فأجهدت ذهني خمس دقائق كاملات لأعرف ما ذا يصنع هذا الرجل : أينغني أم يخطب ، أم هو مصروع معتوه يخلّط ، أم يتكلم بلسان أهل مالطة ، فلم أهتد إلى حقيقته ، ثم سكت ، وتقدم من العلبة أحد موظفي المحطة فقال : لقد انتهت الحفلة الموسيقية ...

فقلت : إذن هي حفلة موسيقية ؟ !

سبحان القادر على كل شيء !

وأقبل الموظف عليّ ، فأشار بيده إلى حيث كان يقف الشاب صاحب الأصوات المختلفة ، فقلت : ما ذا ؟ أأعمل أنا أيضاً حفلة موسيقية ؟

قالوا : هسْ ! هسْ !

وأدار مفتاحاً كمفتاح الكهرباء ، وجعل يكلمني بلسانه بعد أن كان يتكلم بيديه . وقال : تفضل يا أستاذ ، اقعد وتكلم !

قلت : أتكلم مع من ؟ أين الناس ؟ أين المستمعون ؟ ! .

قال : تكلم هنا ... وأشار إلى العلبة

قلت في نفسي : أعوذ بالله من شر هذه الغرفة ! لقد حسبتها سجناً مغلقاً ، فإذا هي مارستان ! أ ! أكلم علبة ؟ أمجنون أنا ؟ ونظرت في المرآة فوجدت صورتي متغيرة ... أهذا أنا ؟ وأنعمت النظر ، فإذا الذي حسبته مرآة لوحٌ زجاج بيننا وبين الغرفة الأخرى ، فنحن نرى من فيها ، ولكن لا نسمع أصواتهم ، فاجتمعت عليّ هذه الليلة المتناقضات : هنا أشخاص أراهم ولا أسمع أصواتهم ، وهنالك صندوق تخرج منه أصوات أسمعها ولا أرى أهلها ، وبحثت عن مهرب فلم أجد ، وفتشت عن نصير فلم ألقَهْ ، وما حولي إلا شباب جدد ، وموسيقيون معهم أعوادهم ، وأنا الشيخ ... الوحيد ... في هذه العصبة ، بهامتي و ... وكدت أقول ، ولحيتي ، ثم ذكرت أني تركت اللحية عند الحلاق ... !

فاستسلمت للمقادير ، وقعدت ، والعرق يسيل على عنق ووجهي ، وشرعت أكلم العلبة كالمجانين ، خوفاً من أن يحل بي في هذه الليلة ما هو أعظم !

نعم . لقد ظلمت ، أيها السادة ، وظلمتم معي ، لأن أكثركم يؤثر (حنابا) بلدية ، أو (قرّادية) نعدة ، أو أغنية شاكية باكية ، بيّنة مميتة ، لا شرقية ولا غربية ... من أغاني عبد الوهاب

على كل ما فى الدنيا من محاضرات ، ولكنكم تستطيعون أن تديروا مفتاح الراديو ، فتتخلصوا منى ومن محاضرتى ، وتبعثوا إلىّ بما يوحيه إليكم نبلكم وكرمكم من الشتائم واللعنات التى لا أسمع منها شيئاً ، ولكن المصيبة علىّ أنا ، لقد حُبست فى مارستان ، لا أخرج منه حتى أكلم علبة من حديد ربع ساعة لا تنقص ثانية ولا تزيد !

فلنستعن بالله ، ولنتحدث ...

ولكن خبرونى أولا : هل تسمعون كلامى حقيقة أم لا ؟

أما أنا فلا أصدق أنكم تسمعون منى ، وكيف يسمع من هو فى الهاجرين وحمص وحلب والقاهرة وطهران ما لا يسمعه هذا الأخ الجالس أمامى وراء الزجاج ، والذى يبدو عليه أنه لا يدرى ما ذا أقول ، فلا يبتسم ، ولا يعبس ، ولا يفتح عينيه ، ولا يرفع حاجبيه ، ولا يصنع شيئاً يدل على أنه سامع ، وهذا من نعم الله علىّ ، فلو سمعنى أتكلم عنه لما نجوت منه بسلام !

فإذا كنتم تسمعون (يا سادة) كلامى ، فأشيروا إلىّ ، أو صفقوا ، أو قربوا أفواهكم من (الراديو) وصيحوا — إنى انتظرت فلم أسمع صيحتكم ، فلم يبق إلا أن أصنع كما صنع زميلنا المحترم (جحا) ، حين أذّن ونزل من المنارة يعدو ، قالوا : إلى أين يا جحا ؟ قال : أريد أن ألحق صوتى فأنظر إلى أين وصل ؟

ولنفرض أنكم سامعون ، فمم أحدثكم ؟ ومن لى بالحديث الذى يرضيكم جميعاً : العالم منكم وغير العالم ، والرجل والمرأة ، والكبير والصغير ، وأى معلم يستطيع أن يلقى درساً واحداً يفهمه تلميذ المدرسة الأولية وطالب الجامعة ومن بينهما ويرضون عنه ويعجبون به .

لقد فكرت طويلا ، وحشدت قوى نفسى كلها ، وما تعلمت من علم وما حفظت من مسائل ، لآتيكم بحديث يدهشكم حتى تقولوا : ما شاء الله كان ! ما هذه المحاضرة ؟ شىء عظيم جداً ، ولكنى لم أستقر على موضوع ...

قلت : الدنيا الآن فى رمضان ، وخير الأحاديث حديث الدين ، وما أسهل الكلام فى الدين فى هذه الأيام وما أيسر أن يحمل المرء نفسه مجتهداً ، وأن يرى الرأى المخالف لأبى حنيفة ومالك والشافعى وأحمد بن حنبل والليث بن سعد والأوزاعى ، وكل مجتهدى الأرض فيتمسك به ويخطّىء المخالفين له : من كان منهم ومن سيكون إلى يوم القيامة . ولم لا ؟ إنه رجل وهم رجال ، والساعاتى والنجار والموسيقى رجال أيضاً ، فلما ذا لا يكونون أئمة مجتهدين ، ما دام العلم بالعربية نحوها وصرفها وبلاغتها ، والفقه أصوله وفروعه ، والتفسير والحديث ليس شرطاً فى الاجتهاد؟

وما دامت الحكومة تمنع غير الطبيب أن يكتب صفة دواء ، وغير المهندس أن يرسم مصور بناء ، وتدع من شاء يتكلم فى الدين والأدب بما شاء ؟ وما دام كل ما يحتاجه الرجل فى هذه الأيام ليكون واعظاً مرشداً يقتدى به ويستمع لقوله ، وتقبل يده ويُتمسحُ بذيله ، أن يمرّض لحيته ، ويكوّر عمته ، ويوسع جبته ، ويطوّل سُبحته ، ويتكلم كلاماً تقبله العامة ، ولو خرّف وخلّط وضلّل ، وأكل الدنيا بالدين ، واستغل غفلة الناقلين ، لا يسأله سائل عما يفعل أو يقول !

لا ... لن أتكلم فى الدين ، فالكلام فيه شديد الخطر ، فأنا أخشى أن أقول الحق فأغضب الناس ، أو أقول الباطل فأسخط الله . ثم إنى طلبت الليلة مرضاة السامعين ، وأكثر السامعين لجهلهم بالدين ، ولطول ما رأوا من أدعياء العلم فيه ، منصرفون عنه زاهدون فى حديثه ، حتى الأتقياء الصالحون منهم ، الذين يتمسكون فى رمضان بدينهم ، فيقضون نصف النهار فى (الأموى) نائمين يشخرون وينخرون[1] أو متحلقين حلقاً يمزحون فى الجامع ويضحكون ويكذبون وينتابون !

فلنتكلم فى الأدب ، فالأدب أسلم عاقبةً ، وأوسع حريةً ، وهو هيّن علىّ وعلى غيرى ، وقد صار الأدب الآن كوصل ليلى كلٌّ يدّعيه ، وكل من يستطيع أن يكتب كلاماً فى ورقة ، ويجد صفافاً يصفّ له حروفه ، وصاحب جريدة ينشره ، فهو كاتب بليغ ، وكل من يأتى بلفظ موزون أو شبه موزون فهو شاعر مُفلق ، وكل من يحفظ خبراً عن أبى تمام والمتنبى ، أو هوغو ولامارتين ، أو شكسبير وملتون[2] ، فهو أديب أريب ، وكل من عاب كاتباً كبيراً بحق أو بباطل فهو ناقد محقق ، ومن عجز عن أن يفكر كما يفكر أبناء آدم عليه السلام ، ويتكلم كما

(١) من اللغى الفصيح .

(٢) لأن الودة تحولت بعد الجلاء من بارنس إلى شكسبير